

تلقي السرديات في النقد الليبي المعاصر

(فاطمة الحاجي وعبد الحكيم المالكي)

علي سحنين - جامعة مصطفى إسطمبولي - معسكر - الجزائر

ali.shanine@univ-mascara.dz

مُلخَص:

إذا كانت السرديات Narrattologie - بوصفها علما للسرد- لم تحظ باهتمام كبير في المشهد النقدي الليبي مقارنة بالاهتمام البالغ الذي لقيته في باقي الأقطار العربية مثل الجزائر وتونس والمغرب، لجملة من الأسباب والظروف المعروفة، فإن عملية التنقيب عن دراسات ليبية في هذا المجال، أسفرت عن العثور على بعض الأعلام النقدية الليبية التي أثبتت وجودها في الساحة النقدية المحلية والعربية، وأعلنت عن ولائها المنهجي لعلم السرديات، محاولة تمثل بعض مقولاتها النقدية في مقاربة خطاب المحكي الليبي على وجه الخصوص. ومن بين هذه الأعلام النقدية برز اسمان نقديان، الأول هو اسم الناقدة المتميزة فاطمة الحاجي التي عُرِفَت بدراساتها الرائدة (الزمن في الرواية الليبية: ثلاثية أحمد إبراهيم الفقيه نموذجاً)، والثاني وهو اسم الناقد عبد الحكيم سليمان المالكي الذي تبني أطروحة السرديات في محاولة منه لتأسيس مشروع سردي في نقد المحكي الليبي على شاكلة المشروع النقدي الذي نهض به سعيد يقطين في المغرب. وفي هذا السياق تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة توصيفية -متوسلة بإجراءات نقد النقد- لتجربة السرديات في ليبيا، وهدفنا في ذلك هو محاولة توكيد حضور أطروحة السرديات في النقد الليبي، وأنها لم تبقى حكراً على بعض الأقطار العربية والمغربية المذكورة، وكذلك في مسعى منا لإضاءة بعض مناطق ظل لا تزال معتمدة بالنسبة لهذه الجهود النقدية المدروسة، رغبة في تطويرها، وتوسيع مداخلها ومجالات اشتغالها، على غرار التطور الذي شهدته في الأقطار المغاربية المجاورة (تونس والجزائر والمغرب وحتى موريتانيا).

1- فاطمة سالم الحاجي ودراسة الزمن في الرواية الليبية:

حاولت "فاطمة سالم الحاجي" في دراستها "الزمن في الرواية الليبية": "ثلاثية أحمد إبراهيم الفقيه نموذجاً"، أن تتجاوز حدود الدراسة التقيية والبنويّة للزمن في

الرواية، التي مثلتها أبحاث كل من "تودوروف" و"جينات". فبعد أن وقفت الباحثة مطوّلاً في الجزء الأوّل من دراستها المذكورة على مختلف مكونات البنية الزمنية في الثلاثية¹ من خلال معابنتها لترتيب زمن القصة وعلاقته بزمن الخطاب، وعملها على استكشاف المفارقات الزمنية ومختلف أنواعها ومظهراتها في الرواية، ووقوفها أخيراً على تقنيّتي المدّة والتواتر في الرواية أيضاً. دأبت في الجزء الثاني على توسيع دائرة عملها بجعلها تنفتح أكثر على المستوى الدلالي؛ بمعنى أنّ الباحثة تستهدف -في هذا المستوى- استكشاف دلالة البنية الزمنية للنصّ الروائي، واستنطاق مختلف تقنيّاتها الشكلية والزمنية التي ظهرت في الجزء الأوّل من الدراسة مفرغة من كلّ محتوى أو دلالة، ومتمظهرة في قوالب وأشكال جاهزة، وشواهد روائية، ونسب وبيانات وجداول إحصائية تفتقر إلى التبرير والتعليل والتأويل.

تنطلق "الحاجي" في مقارنة البنية الدلالية للزمن في الرواية الليبية من أبحاث "بول ريكور" الذي تصرّح بأنها "وجدت في منهجه دليلاً واضحاً، خاصة وأنه قام بدراسة ثلاث روايات زمنية [البحث عن الزمن الضائع] لـ (مارسيل بروست) [الجبل السحري لـ] (توماس مان) [السيدة دالوي لـ] (فرجينيا وولف)². لكنّها لم تحل إلى مصدر هذه الدراسة³. وإلى جانب ذلك تستحضر الباحثة أفكار "سعيد يقطين" في دراسة البنية الدلالية للنصّ الروائي، وبالأخصّ التعريف الذي وضعه للنصّ في "انفتاح النصّ الروائي"⁴ الذي يفترض معه الإمساك بالمستوى الدلالي والاجتماعي والوظيفي في النصّ من خلال علاقات التفاعل بين الكاتب والقارئ. لكنّ الغريب في الأمر أنّ الباحثة عزفت عن ذلك ولم تستثمره في مستوى التطبيق، واكتفت بتوظيف بعض تصوّرات "بول ريكور" Paul Ricœur⁵ في استخلاصها

¹ ثلاثية أحمد إبراهيم الفقيه هي في الأصل نصّ روائي واحد يصوّر حياة شخصية واحدة هي شخصية خليل، لكنّه كتب في ثلاثة أجزاء هي: "سأهيك مدينة أخرى"، و"هذه تخوم مملكتي" و"نفق تضيئه امرأة واحدة". (نشرت هذه الأجزاء الثلاثة في طبعها الأولى سنة 1991 عن دار رياض الريس للكتب والنشر).

² الحاجي فاطمة سالم، الزمن في الرواية الليبية، ثلاثية أحمد إبراهيم الفقيه نموذجاً، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا، ط1، 2000، ص. 273.

³ Ricœur, Paul, *Temps et Récit*, Paris, TII, Seuil, 1984, p.151-152.

⁴ يقطين سعيد، انفتاح النصّ الروائي: النصّ والسياق، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006، ص. 32.

⁵ أكّد بول ريكور في مؤلفه *Temps et Récit* على أنّ توظيف التقنيّات الزمنية، وبالأخصّ الاسترجاعات والاستباقات في خطاب المحكي ليس توظيفاً مجانياً، وإنما يشكّل حضورها إسهاماً حقيقياً في تشكيل دلالة المحكي النهائية، وفي استدعاء الأزمنة الماضية وترهينها في الحاضر،

لدلالة التقنيّات الزمّنيّة في الرواية، هذا فضلاً عن تناولها لبعض العناصر التّنظيريّة كتعريفها بعلم الدلالة، واتجاهاته، وحديثها عن علم الدلالة عند العرب، وهي عناصر لا طائل من إيرادها في هذا السياق؛ إذ فما جدوى استحضار أدوات ونظريّات لا يتمّ توظيفها إجرائيّاً عند التّطبيق؟ وقد شكّعت الباحثة مفاربتها للبنية الدلاليّة للزّمن بتحديد لها لدلالة المفارقات الزمّنيّة، ودلالة العلاقة بين الأزمنة، وأخيراً دلالة الزّمن في السياق اللّغويّ.

ارتأت الباحثة عند مباشرتها للتّطبيق تأطير الأزمنة الموجودة في الثلاثيّة وتقسيمها إلى أربعة أقسام هي: الزّمن الحاضر، والزّمن الماضي، وزمن الرّحلة، وزمن الحلم. وقد عملت على إضاءة هذه الأزمنة، من منطلق ما أسماه "بول ريكور" -في أثناء دراسته للروايات الثلاث المذكورة- بالتّجربة السردية للزّمن، بما هي تجربة افتراضيّة متخيّلة أو معيشة في الزّمن الماضي يمكن أن يكون لها امتداد في الحاضر، كما بإمكانها أن تتقاطع مع تجربة القارئ في الواقع الرّاهن أيضاً⁶. من هذا المنطلق، فالأقسام الزمّنيّة الأربعة التي وضعتها "الحاجي" تسهم مجتمعة في تحديد دلالة النصّ وتأثيرها على شخصيّة "خليل" البطل وصنعها في الرواية. فالحاضر يعبر عن مأساة البطل "خليل" ومعاناته. وأمّا الزّمن الماضي الذي يتمثّل في الرّحلة الدّراسيّة إلى بريطانيا والحلم، فقد تمّ استدعاؤه عن طريق مفارقة الاسترجاعات من أجل إضاءة حاضر الشخصيّة (خليل) وواقعها المعاش، وكشف تناقضاتها واختلالاتها؛ أي إنّ حضور الاسترجاعات "على طول مساحة النصّ له دلالة على استمرار الماضي المتحكم فيه (أي في البطل) والذي ظل يسكنه طوال مسيرة حياته"⁷ مؤثراً في أفكاره وأفعاله ومختلف تصرّفاته.

لما كانت الاسترجاعات تشكّل لبنة أساسيّة في الثلاثيّة أولته الباحثة اهتماماً بالغاً في إطار تناولها لدلالة المفارقات الزمّنيّة في الرواية، في محاولة لتقديم تأويل دلاليّ لدواعي لجوء "الفقيه" إلى توظيف تقنيّة الاسترجاعات في النّصوص الروائيّة، وفي محاولة كذلك لتفسير نشاط هذه التقنيّة المكثّف في هذه النّصوص أيضاً. فالعودة إلى الماضي (ماضي الطفولة والرّحلة والحلم) وإعادة ترهينه في الحاضر هو إعادة إنتاج لزمّنيّة جديدة مرتبطة أساساً بشخصيّة "خليل" المنشطرة

أي جعل هذه التقنيّات الزمّنية تؤدّي غايات دلالية وتبوح بتجارب ما للزمن، وهو ما عملت "الحاجي" على استثماره في دراستها.

-Voir, Ricœur, Paul, *Temps et Récit*, Tome II, p.124-125-150.

⁶ Voir, Ricœur, Paul, *Temps et Récit*, Tome II, p.151.

⁷ الحاجي فاطمة سالم، الزمن في الرواية الليبية، ص. 300.

بين شخصيّتين وزمنين: زمن الماضيّ وزمن الحاضر، زمن القهر والأسى والحرمان والتسلّط، وزمن التحرّر والإشباع النّفسيّ للذّات المتوهّجة والمحرومة. فقد انتهت الباحثة إلى أنّ "الزمن الماضيّ ذو دلالة أكيدة في النصّ فهو المتحكم في سقوط البطل في الحاضر وجاء يؤلف طريقة في التكوين، ولبنة من البناء الزمنيّ فأصبحت البنية دالة في تواجده على طول النصّ، في استرجاعات متكررة"⁸ وتمكّنت في خطاب ثلاثية إبراهيم الفقيه الروائيّة.

بهذا جاء تعامل الباحثة مع تقنيّة الاسترجاعات معلّلاً ومبرراً؛ لأنّه يؤدّي وظيفة دلاليّة في الثلاثية، ولأنّ عمليّة إجراء هذه التقنيّة لم تكن مقحمة من خارج النصّ الروائيّ، بل كانت نتيجة استجابة نابعة من داخل بنيته النصّيّة. لكنّ الأمر الملاحظ على تناول الباحثة لتقنيّة الاسترجاعات هو أنّه على الرّغم من محاولتها الإمساك بوظائفها وتحديددها لأدوارها في تشكيل دلالة الزّمن في نصّ الثلاثيّة، إلّا أنّ عمليّة التحليل جاءت سريعة ومختزلة بدليل اقتصارها على بعض الشّواهد الروائيّة المجتزأة في أغلبها من نصّ "سأهيك مدينة أخرى"، وبدليل تركيز "الباحثة" في معاينتها لتقنيّة الاسترجاعات على ما يتعلّق بالشّخصيّة المركزيّة أو المحوريّة "خليل". ولو أنّها عملت على توسيع مجال اشتغالها الدلاليّ بجعله يشمل جميع التقنيّات الأخرى بما في ذلك مفارقة الاستباقات وتقنيّات المدّة التي جاء تناول الباحثة لها في الجزء الأوّل تناولاً شكلياً وتقنيّاً بحثاً، ممّا أثار أمامنا تساؤلات جمّة عن جدوى التحليل التقنيّ وأهمّيته، مادام أنّ "الحاجي" تستهدف بالدرجة الأولى استنطاق البنية الدلاليّة لثلاثيّة الفقيه الروائيّة؟ وكذلك لأنّ "العناصر الشكليّة لم يعد ينظر إليها بوصفها مجرد وسائل محايدة، بل هي بؤرة دلالية تقع في مقدمة عناصر إنتاج المعنى داخل النصّ"⁹ الروائيّ.

الجواب عن ذلك أنّ الباحثة -ربما- وجدت فسحة ومجالاً أرحب لإجراء تحليلاتها التقنيّة والشكليّة، وفي رصد مختلف التقنيّات الزمنيّة وإحصاء تمظهراتها في النصوص الروائيّة المدروسة، بينما عجزت عن تعميم ذلك في المستوى الدلاليّ لمحدوديّة إمكاناتها وقدراتها، لذلك اقتصرّت على استكشاف دلالات مفارقة الاسترجاعات لسهولة الإمساك بها ولمطاوعة نصّ الثلاثيّة لها، الذي يبنّي أساساً على أحداث متعلّقة بالماضي، أسعفت الباحثة منهجياً ودلاليّاً على معاينة هذه المفارقة الزمنيّة وعلى إجراء تحليلاتها الدلاليّة المرتبطة بفهم حاضر الشّخصيّة المركزيّة "خليل" في الثلاثيّة.

⁸ المصدر نفسه، ص. 308.

⁹ الحاجي فاطمة سالم، المصدر السابق، ص. 290.

تنتقل الباحثة بعد ذلك مباشرة إلى دراسة دلالة العلاقة بين الأزمنة داخل الثلاثية في محاولة لإقامة نظام من التقابلات والاختلافات والتناقضات بين هذه الأزمنة، مما نتج عنه سلسلة من الثنائيات المتضادة التي أسهمت في النهاية في إنتاج البنية الدلالية لنص الثلاثية. وهذه العلاقات أو التقابلات التي أجرتها الباحثة هي بين الزمن الماضي والزمن الحاضر، وبين زمن الرحلة وزمن الحلم، وبين الرجل والرجل، وبين الرجل والمرأة كذلك. فالعلاقة بين الزمن الماضي والزمن الحاضر هي علاقة تضاد وبين زمن الرحلة وزمن الحلم هي علاقة انسجام؛ لأن "خليل" توصل بالزمنين للهروب من الزمن الحاضر، وأما العلاقة بين الرجل والرجل فتتمثل في علاقة "خليل" الخلافية مع صديقيه "عدنان" و"محمود" في عدم التزامه بقضايا وطنه وانحرافه بسلوكاته عن المجتمع، وأخيراً علاقته بالمرأة التي تميزت بالتوتر والخيانة؛ إذ "نلاحظ خيانة "ليندا" مع "ساندرا" في الجزء الأول، وخيانة "نرجس القلوب" مع "بدور" في الجزء الثاني، وخيانة "سناء" مع "سعاد" في الجزء الثالث"¹⁰. وقد انتهت الباحثة إلى تجسيد هذه العلاقات الزمنية المبنية على التناقض والاختلاف من خلال المربع السيميائي بوصفه تحققاً شكلياً لإنتاج المعنى أو الدلالة.

إذا كانت الباحثة تستهدف من وراء إقامتها لهذه العلاقات والتقابلات بين الأزمنة- بناء الدلالة الزمنية في الثلاثية الروائية وإنتاجها؛ فإن توصلها ببعض الإجراءات السيميائية، بما في ذلك مبدأ الاختلاف، والتقابل، والمربع السيميائي، لم يكن سوى مطية لبلوغ الدلالة في النصوص الروائية السابقة؛ لأن الباحثة صرحت في البداية بانطلاقها من أفكار "بور ريكو" التي سرعان ما اختفى بريقها في أثناء التحليل؛ إذ لم تظهر مفاهيمه وأدواته بشكل واضح ودقيق، كما أن المفاجأة الحاصلة هي عدم تصريح الباحثة بمراجعتها السيميائية أو الإشارة إلى مرجع من مراجع "غريماس" Algirdas Greimas، مما قاد إلى التساؤل مرة أخرى عن جدوى استحضار أدوات أو إجراءات منهجية والعدول عنها إلى أخرى في أثناء التحليل؟ فهل ما جنحت إليه "الحاجي" هو دعوة إلى التعايش والتضاييف بين المناهج والنظريات؟ أم هو الإنصات والإصغاء للنصوص الروائية؟ أم هو العجز والتمحل والتلفيق المنهجي؟

لم تكف الباحثة بدراسة دلالة العلاقة بين الأزمنة الروائية، بل التفتت أيضاً إلى النظر في دلالة الزمن في السياق اللغوي؛ إذ عملت أولاً على استكشاف دلالة التقديم والتأخير في الثلاثية، لكنها اكتفت بدراسة مثال واحد تمثل في مطلع الرواية (زمن مضى وزمن آخر لا يأتي) الذي انتقته بدقة؛ لأنه يخدم غايتها الدلالية، وهي أن الفاعل (زمن) تقدم على الفعل (مضى) لدلالته على زمن مخصوص هو

¹⁰ المصدر نفسه، ص. 320.

الحاضر. بينما كان انتقالها إلى دراسة دلالات استعمال "الفقيه" لبعض الأدوات والقرائن ووظائفها الزمنية في ثلاثيته تدعيماً لأهدافها وغاياتها الدلالية الموجهة، ومن ذلك وقوفها على دلالات اقتران الفعل بالحروف (السين وسوف) الدال على الزمن المستقبل القريب والزمن المستقبل البعيد، واقترانه بظُلِّ الدال على الاستمرار، وبما زال ولا يزال الدال على امتداد الزمن واستمراره من الماضي إلى الحاضر، وكل ذلك كان موجّهاً لخدمة الدلالة المركزية في الثلاثية وهي تأثير ماضي "خليل" وتحكمه في حاضره واستمراره فيه وامتداده إليه.

لئن كانت الباحثة بصنيعها هذا قد اقتحمت عوالم أخرى من دلالة الزمن وبعض أسيفته المحددة للدلالة في الثلاثية؛ فإن طريقة تناول الباحثة لذلك جاءت مختزلة ومقتصرة على بعض الأمثلة البسيطة، والشواهد الروائية المجتزأة كذلك من الجزء الثاني من الثلاثية (سأهيك مدينة أخرى)، إذ لم تشمل جميع الأجزاء الثلاثة التي يتألف منها النصّ الروائي للفقيه، ممّا حال دون امتلاك تصوّر دلالي متكامل عن الزمن في ثلاثية الفقيه الروائية، وجعل تحليلها يتميّز بالنقص والابتسار، ناهيك عن اقتصار معالجتها لدلالة الزمن على ما يتعلّق بالشخصية المحورية "خليل".

يبقى تناول الجزء الأخير من دراسة الباحثة لدلالة الزمن الروائي في الثلاثية، الذي يتعلّق بتناولها لدلالة التقنيات الزمنية فيها؛ إذ حاولت من خلال إجراءاتها لبعض النسب الإحصائية في أجزائها الثلاثة أن تستكشف وظائف الزمن ودلالاته في المشاهد الحوارية والوقفات الوصفية وفي المونولوج وفي الاسترجاعات وفي بعض الاستباقات، غير أنّ الباحثة قد أغرقت في الإحصاء والتحليل الشكلي التقني دون أن تلامس الدلالة الكامنة وراء هذه التقنيات، فقد أوجدت أنّ لفظة زمن تتكرّر 37 مرّة في الجزء الأول من الرواية، و45 مرّة في الجزء الثاني، و93 مرّة في الجزء الثالث، بينما أوجدت أنّ تقنيّة الزمن تحضر في المشهد بنسبة 27%، وتتواجد في الوصف بنسبة 25% أي ما يعادل 22 وقفة، وفي المونولوج بنسبة 40% أي ما يعادل 20 مونولوجاً؛ إذ الملاحظ على هذه النسب أنّها غير معلّلة وبحاجة إلى التّأويل، باستثناء تكرار لفظة زمن وتواترها في الثلاثية التي ترى الباحثة بأنّ تكرارها بنعوت مختلفة (عنكبوت الزمن، أبخرة الزمن، أزمنة الجفاف، الزمن الهارب، زمن الحلم، زمن الرّؤيا، زمن العيث، زمن الجنّة... الخ) يمنحها في كلّ مرّة دلالة زمنية مختلفة ومغايرة، وباستثناء كذلك تقنيّة الاسترجاعات التي بلغ عددها 39 استرجاعاً التي هيمنت كثيراً في الثلاثية وأدّت دوراً لافتاً في تشكيل حاضر شخصية البطل فيها. وأيضاً بعض الاستباقات القليلة التي أدّت هي الأخرى دوراً بارزاً في التنبؤ بالزمن المستقبل.

إنّ دراسة الباحثة الليبية "فاطمة سالم الحاجي" لدلالة الزّمن في الرواية الليبية على الرّغم من اتّسامها بالبساطة والابتسار، وعدم دقّة مرجعيّاتها ووضوحها، وسيطرة التّحليلات النّقنيّة والشكليّة، دون أن تحقّق الغاية المرجوّة من الدّراسة الدّلاليّة، إلّا أنّ ما نهضت به، يعدّ دعوة مبكّرة لتوسيع نطاق السّرديات البنيويّة وفتحها منهجيّاً جديداً لدراسة الجانب الدّلاليّ المتخفي وراء الأشكال السّردية والتّقنيّات الزّمنيّة في النّصوص الروائيّة، كما أنّها تعدّ أيضاً وثيقة مهمّة بالنّسبة للباحثين والدّارسين رغم كثرة عثراتها واختلالاتها، وذلك بالنّظر إلى ندرة الدّراسات السّردية في هذا الباب؛ إذ إنّ أغلب الدّراسات المهمّة بهذه التّقنيّات الزّمنيّة بقيت أسيرة التّطبيقات الشكليّة والنّقنيّة، ولّمّا التفتت إلى استجلاء دلالاتها، باستثناء بعض الاجتهادات القليلة التي مثلتها أبحاث "سعيد يقطين" و"محمد الخبو" و"محمد نجيب العمامي" في الأونة الأخيرة. وبالنّظر كذلك إلى الفترة الزّمنيّة والرقعة الجغرافيّة التي ظهرت فيها هذه الدّراسة.

2- سرديات عبد الحكيم المالكي:

ينطلق عبد الحكيم المالكي¹¹ في بناء تصوّره للسّرديات من مرجعيّة مزدوجة غربيّة وعربيّة، يحاول من خلالها أن يصطنع منهاجاً لمقاربة خطاب الرواية العربيّة عامّة والرواية الليبية بشكل خاصّ؛ إذ يممّ أول الأمر شطر سرديات "جينات" و"سعيد يقطين" معلناً عن ولائه المنهجيّ لمقولاتهما وتصوراتهما البنيويّة في دراسة خطاب المحكيّ الروائي (الزّمن -الصّيغة- الصّوت)، فكان اشتغاله في بداية مشواره حصريّاً على الخطاب ومكوّناته، حيث صرّح في كتابه "آفاق جديدة في الرواية العربيّة"، قائلاً: "ننطلق هنا في اشتغالنا في المستوى الأول -الخطابي- على الروايات مدار البحث، من السّرديات كعلوم ومن المزوجة

¹¹ عبد الحكيم سليمان المالكي باحث ليبي يشغل في مجال السرديات، ومتحصل على شهادة بكالوريوس هندسة ميكانيكية من جامعة النجم الساطع التقنية، سنة 1987، وعضو هيئة تدريس بالمعهد العالي للمهن الشاملة، مصراتة، ليبيا، وأيضاً عضو تحرير مجلة الفصول الأربعة الليبية. صدر له الكتب الآتية: السرديات والقصة الليبية القصيرة (نحو مدخل للتقنيات والأنواع) عن مجلس الثقافة العام، 2006. آفاق جديدة في الرواية العربية صادر عن دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، 2006. استنطاق النص من البنية النصية إلى التفاعل النصي عن مجلس الثقافة العام 2008. جماليات الرواية الليبية عن جامعة مصراتة، 2008، واستنطاق النص الروائي من السرديات والسميانيات السردية إلى علم الأجناس الأدبية عن دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، 2008. كما صدر له أخيراً (2013) الجزء الأول من سلسلة الدراسات السردية بعنوان السرديات والسرد الليبي ويتكون من الكتب الثلاثة التالية: الكتاب النظري للسرديات. السرديات والرواية الليبية. السرديات والقصة الليبية القصيرة.

بين منهج "جيرار جينات" و"سعيد يقطين"، في القسم الخطابي الأول، والذي نتابع فيه خطاب الرواية العربية وتحولاته على مستوى الزمن والصيغة السردية والتبئير، ونحن هنا ننتقل في دراسة الزمن من رؤية "جينات"، فيما نعتمد في دراسة التبئير والصيغة السردية على منجزات سعيد يقطين¹². وبهذا يتضح أن الباحث قد حدّد المرجعية المنهجية التي سينطلق منها في دراسة خطاب الرواية العربية إشارة إلى سرديات الخطاب أو السرديات الحصرية، ممّا جعله يستدعي منجزات "جينات" وتصوّرات "سعيد يقطين" لهذا المنجز.

إذا كان الباحث قد انطلق من الاشتغال الحصريّ على الخطاب؛ فإنّه سرعان ما انفتح على سرديات النّصّ مواكبة منه للانفتاح والتحوّل الذي شهدته سرديات "جينات" و"يقطين". ففي دراسته الأخرى "السرديات والقصة الليبية القصيرة" يعلن الباحث أيضا عن المنهجية التي سيتبّعها والطريق التي سيسلكها في مقاربة خطاب القصة الليبية، محاولا بذلك استثمار إجراءات السرديات التي أعدت خصيصا لمقاربة خطاب الرواية، وقد سلك في ذلك طريق التقسيم الثلاثي للمحكّي الذي اعتمده السرديات فيما بعد؛ أي في طور التوسيع، حيث أفصح عن ذلك بالقول: "ننتقل إذن في ممارستنا الإجرائية من السرديات كعلوم ومن فصل السرديات بين تمظهرات العمل الروائي الثلاثية كأساس أول، والتي تقسم تمظهرات ثلاثة هي القصة أو الحكاية الأولى، الخطاب، النص"¹³. إذ تمثّل القصة أو الحكاية الأولى المادّة الحكائيّة ذات الأحداث الزمنية المتتالية التي قسمها الباحث انطلاقا من التقسيم الذي وضعه "سعيد يقطين" إلى أحداث وشخصيات وزمن وفضاء. أمّا الخطاب فيرى أنّه يدرس من خلال متابعة العلاقة التخاطبية بين السارد والمسروود له عبر المكونات أو التّمظهرات الآتية: الزمن، الصيغة، الرؤية والصوت (التبئير). فإذا كان الباحث يتفق مع "جينات" في رؤيته للزمن؛ فإنّه يخالفه في رؤيته للصيغة والصوت متبعا نظرة "سعيد يقطين" الذي يخلط بينهما.

أمّا تمثله لسرديات النّصّ فجاء انطلاقا دائما من تصوّرات "يقطين" لا سيّما في كتابه "انفتاح النّصّ الروائي" الذي قسّم فيه تمظهرات النّصّ إلى ثلاثة مكونات هي: التفاعل النّصي، والبنيات النّصية، والبنية السوسيونصية. وقد تدعّم هذا الاشتغال التوسيعي في كتابه "استنطاق النّص من البنية النّصية إلى التفاعل

¹² المالكي سليمان عبد الحكيم، آفاق جديدة في الرواية العربية، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006، ص.37، 38.

¹³ المالكي سليمان عبد الحكيم، السرديات والقصة الليبية القصيرة، نحو مدخل للتقنيات والأنواع، مجلس الثقافة العام، طرابلس، ليبيا، ط1، 2006، ص. 11.

النّصيّ"، حيث يقول: "سيكون اشتغالنا على مستويين، ففي مستوى أول سوف نبحت في البنى النصية في الرواية العربية... بينما سيكون اشتغالنا في المستوى الثاني على مستوى التفاعل النصي في حدود عملية المناصّة، من خلال تنظيرات سعيد يقطين وجينات، ويكون اشتغالنا انتقائياً أيضاً بحيث نحاول أن نتطرق لبعض الأعمال الروائية العربية في الوقت الذي سيكون تركيزنا على النص الليبي أكبر (رواية وقصة)¹⁴، وذلك من منطلق رؤيته التوسيعيّة.

على هذا الأساس سعى الباحث إلى دراسة البنية السّوسيونصيّة في بعض الرّوايات العربيّة وهي رواية "الحي اللّاتيني" لسهيل إدريس و"حقول الرّماد" لأحمد الفقيه و"صاحبة الجلالة" لأحمد نصر و"محاولة عيش" لمحمد زفزاف، كما اشتغل أيضاً بدراسة المناص بنوعيه الخارجيّ والدّاخلّي في بعض النّماذج الرّوائية والقصصيّة العربيّة واللّيبية، ومن الرّوايات التي اشتغل عليها هنا رواية "نزيف الحجر" و"عشب اللّيل" لإبراهيم الكونيّ، و"التّابوت" لعبد الله الغزال، و"أوزار" لسليمان زيدان، و"بر الأحصنة" لنجوى شتوان. أمّا القصص المدروسة فتمثّلت في قصّة "العجين" لأحمد يوسف عقلة، و"خديجار" لسالم العبار و"عودة الديناصور" لعبد الله السّعداويّ.

لم يقتصر اشتغال "عبد الحكيم المالكي" في ميدان السّرديات على التّقسيم الثّلاثيّ للمحكّيّ، بل ظلّ هاجس التّوسيع يراوده من دراسة إلى أخرى، حيث حاول في دراسته الموسّعة "استنطاق النصّ الرّوائيّ: من السّرديات والسّيميائيات السّردية إلى علم الأجناس الأدبية"- أن يجمع بين السّرديات والسّيميائيات السّردية، محاولاً توضيق الهوة بينهما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى سعى إلى تأسيس ما أسماه سرديات الأجناس. يقول الباحث في مقدّمة هذه الدّراسة: "تنطلق رحلة البحث ضمن هذه الدراسة في محاولة تأسيس اهتمام بالجيل المتميز الجديد، من السرديات للسيميائيات السردية، وذلك ضمن هاجسين مركزيين، هما محاولة الربط بين العلمين المذكورين من جهة، ومن جهة أخرى التنقيب في رصيد التجربة الجديدة على خامات متميزة وأعمال قادرة على مد الرؤية النظرية التي نسعى لتأطيرها هنا... وكان اشتغالنا على موضوع التأطير والترهين والاشتغال على الحواس، بينما نضيف ضمن هذه الدراسة (إكمالاً للمربع) الوصف المقارن. وذلك عبر الربط بين السيميائيات السردية والسرديات من خلال هذه العلاقات التي ستكون لب الترابط العميق بينهما... بينما سيكون ثالث هذه الاشتغالات ما سنجازف

¹⁴ المالكي سليمان عبد الحكيم، استنطاق النص من البنية النصية إلى التفاعل النصي، مجلس الثقافة العام، طرابلس، ليبيا، ط1، 2008، ص. 42، 43.

بتسميته سرديات الأجناس، حيث نحاول أن نؤسس ضمن ذلك أساسا للدخول للنص من خلال مفاهيم التداخل النوعي والجنسي ومناقشة قضايا النص المتعالي التي طرحها جينات، ثم الانطلاق هنا تطبيقيا للدخول للنصوص وفحصها من الداخل والبحث في مكوناتها الجنسية والنوعية والخطابات المندرجة ضمنها وعبر ذلك نسعى (لقراءتها/تجنيسها)¹⁵. فالمالكي من خلال ذلك يسعى إلى إيجاد مسوِّغات للجمع بين السرديات والسيميائيات السردية في مقاربة نصّ الرواية اللبّية. فهل يجد ذلك شرعيّة التحليليّة والإجرائيّة لدى تماسّه وتعانقه معها؟.

لا شك أنّ هذه مجازفة حقيقيّة من الباحث -كما صرّح بذلك- ذلك لأنّ -أولا- مسألة الجمع بين السرديات والسيميائيات مسألة إشكاليّة ولا تزال محلّ نقاش وجدل كبيرين إلى اليوم، وهو أمر تمّت مباحثته سابقا في عنصر سابق من هذا الفصل، الذي تبيّنت فيه الحدود الفاصلة والفارقة بين الاتجاهين لدى أبرز أعلامهما لا سيّما "جينات" و"غريماس"، و ثانيًا، ومن جانب آخر فالمسعى الذي يهدف إليه الباحث من خلال انفتاحه على سرديات الأجناس، ومحاولته تأسيس رؤية شاملة، وفهم متكامل لجميع مستويات اشتغال النصوص السردية، لا يمكن أن يتحقّق ببساطة كون أن جلّ تصوّراته النظرية والمنهجية مترامية الأطراف وأنّ الهوة واسعة بين النظريات المكوّنة لمشروعه السردية، كما أنّ هذه التصوّرات النظرية والمنهجية التي يتسلّح بها الباحث هي في حقيقتها مفاهيم وأدوات مستعار أغلبها من "سعيد يقطين"، الذي استعارها بدوره من "تودوروف" و"جينات" مع شيء من التعديل. بهذا تكاد تكون سرديات "المالكي" نسخة مكرّرة عن سرديات "سعيد يقطين" رغم أنّه صرّح في أكثر من موضع باعتماد منهج "جيرار جينات". لكنّه وبمجرّد العودة إلى مراجع دراسته يتأكّد ذلك، فلا يجد القارئ مرجعا أصليًا من مراجع "جينات" خاصّة أبحاثه الأولى المؤسسة للسرديات والموضحة لحدودها، ودراسته الرائدة "خطاب المحكي" Discours du récit. ولعلّه كان حريًا بالباحث أن يصرّح باستحضاره منجزات "جينات" من خلال اطلاعه على دراسات "سعيد يقطين" ومشروعه السردية.

أخيرًا يمكن القول بأنّ السرديات قد شقت طريقها إلى الدرس النقدي الليبي المعاصر وإنّ بخطى متناقلة، لكنه وبالنظر إلى كون هذه التجربة ما تزال في بدايات تشكلها، وفي أولى مراحل تبلورها، كما أن أدواتها الإجرائية لم تنضج بعد

¹⁵ المالكي سليمان عبد الحكيم، استنطاق النص الروائي من السرديات والسيميائيات السردية إلى علم الأجناس الأدبية، دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2008، ص. 05، 06.

وتكتمل، وبالنظر كذلك إلى ندرة الدراسات النقدية في مجالها، فإن ما قدمته فاطمة الحاجي، وما يقدمه عبد الحكيم سليمان المالكي يبقى مؤشرا حيويا على إمكانية تطوير هذه المجهودات النقدية المتحققة، وتوسيع مداخلها، وتنويع ميادين اشتغالها، ولا سيما إذا انفتحت بشكل مباشر على منجزات السرديات في النقد الغربي، وواكبت تطوراتها الحاصلة لدى أعلامها ومؤسسيها، وأفادت أيضا من المنجز النقدي العربي الذي راكم بعض الجهود المتميزة لبعض الأعلام الرائدة التي يمكن محاكاتها والاقتراء بها في هذا المجال، أمثال سعيد يقطين وعبد العالي بوطيب في المغرب ومحمد الخبو ونجيب العمامي وأحمد السماوي في تونس والظاهر رواينية وعمر عيلان في الجزائر.



المصادر والمراجع:

- الحاجي فاطمة سالم، الزمن في الرواية الليبية، ثلاثية أحمد إبراهيم الفقيه نموذجاً، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا، ط1، 2000.
- المالكي سليمان عبد الحكيم، آفاق جديدة في الرواية العربية، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006.
- المالكي سليمان عبد الحكيم، السرديات والقصة الليبية القصيرة، نحو مدخل للتقنيات والأنواع، مجلس الثقافة العام، طرابلس، ليبيا، ط1، 2006.
- المالكي سليمان عبد الحكيم، استنطاق النص من البنية النصية إلى التفاعل النصي، مجلس الثقافة العام، طرابلس، ليبيا، ط1، 2008.
- المالكي سليمان عبد الحكيم، استنطاق النص الروائي من السرديات والسيمائيات السردية إلى علم الأجناس الأدبية، دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2008.
- يقطين سعيد، انفتاح النص الروائي: النص والسياق، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006.
- Ricœur Paul, *Temps et Récit*, Paris, TII, Seuil, 1984.

